

العلاقة الصوتية بين آخر الكلمة وأول مجاورتها في التركيب النحوي

الدكتور إسماعيل أحمد عميرة*

الملخص

تحدث الباحثون عن الحركة الإعرابية والنظام الإعرابي في العربية، فبيّنوا أهميتها في بيان المعنى، وأهميتها في وصل الكلام، وأما هذه الدراسة فتسعى إلى بيان العلاقة الصوتية بين أواخر الكلمات وأوائل مجاوراتها في التركيب النحوي، وإظهار أثر الحركة الإعرابية وحركة البناء في وظيفة أخرى، لا تقل أهمية عن الوظيفتين السابقتين، ألا وهي عدم اختلاط الكلمة بالأخرى في سياق الجملة، فالحركات - وفق النظام الإعرابي متعدّد الأغراض - تعطي الكلمة أهميتها بما يحول دون طمس هذه الهوية داخل الجملة. إنها كالعرى التي توثق حلقة بأخرى، حتى تكوّن سلسلة متصلة، ولكنها في الوقت نفسه، بمنزلة الفواصل التي لولاها، لبدت حلقات السلسلة مُدمجة لا فوارز بينها. وهذا هو شأن الإدغام الذي تتعرض له الكلمات في الجملة من غير الحركات، وقد ضربت الدراسة أمثلة عديدة، من القديم والحديث، لما يمكن أن يترتب على تسكين آخر الكلمة بإدغام آخرها في أول الكلمة التي تليها. وفي هذا ما قد يؤدي إلى الغموض والتداخل الذي نلمحه أحياناً في كثير من اللهجات العربية بسبب تسكين أواخر الكلمات فيها، بل حدث في الفصحى أحياناً، حيث تصادف كلمة ساكنة الآخر، في موقعها كلمة تالية لها، يماثل صوتها الأول، الصوت الصامت الساكن قبلها، أو

* قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب - الجامعة الأردنية

يقاربه، فيترتب على ذلك تماثل الصوت الأول مع الصوت اللاحق ثم إدغامه فيه، كما هي الحال في قوله تعالى: "وقد تبين لكم"¹ التي تصبح بالإدغام: "وقت تبين"، وفي قوله تعالى: "ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون"²، في قراءة أبي عمرو، بإبدال التاء من "بينات" تاءً، وإدغامها في تاء "ثم"³.

وعلى هذا فإن هذه الدراسة تؤمن بضرورة التمسك بحركات أواخر الكلم، لما لها من وظيفة تواصلية، لا يضعف من شأنها، ما يقال بين الحين والآخر من دعاوى ترمي إلى التسكين والتخلص من الحركة الإعرابية، بحجة تيسير العربية، فنظام الإعراب ثابت من ثوابت النحو، الذي هو ثابت من ثوابت العربية، وإلا فلماذا تشبث النحاة العرب بتقعيد اللغة، على أساس الحركات في أواخر الكلم؟ ألم يكن في وسعهم أن يعدوا اللغة على أساس ما قامت عليه اللهجات، بل بعض القراءات القرآنية الكريمة التي يكثر فيها التسكين، بدل التحريك، كقراءة أبي عمرو ويعقوب؟ ولم هذا التشبث بالنظام الإعرابي في الفصحى لو لم يُجمع النحاة عرباً وعجماء، على أهميته في حفظ الفصحى، بوصفها صعيداً يلتقي عليه الناطقين بالعربية جميعهم، على اختلاف لهجاتهم وأمصارهم وأعصارهم؟

1 سورة العنكبوت، الآية 38.

2 سورة البقرة، الآية 92.

3 انظر ابن مجاهد: السبعة في القراءات 21.

مقدمة: عرض بعض الدراسات السابقة، وتحديد مشكلة البحث

ماذا يمكن أن يترتب على إلغاء الحركة الإعرابية وحركة أواخر الكلمة؟ وكيف تتميز كلمة من كلمة في درج الكلام داخل الجملة؟ في هذا الإطار يأتي مبحث هذه الصفحات. والمقصود بالحركة تلك التي تظهر على أواخر الكلم، سواء أمينية كانت الكلمة أم معربة. ولما كان الحديث عن الحركة معنى، قد سبق لكثير من الباحثين، فلا أحسب أنه مستهدف هنا¹. كما أن بعض الباحثين كمحمد بن المستنير (قُطرب) قديماً²، وإبراهيم أنيس³، وداود عبده حديثاً⁴، قد بينوا وظيفة أخرى للحركة، إذ هي مفيدة في وصل الكلام، وهذا ما يلحظ حتى في اللهجات الدارجة، فهي تستغني عن نظام الحركة، لكنها لا تستغني عن تحريك أواخر الكلمات في بعض المواقع، لأن هذا التحريك يُلين الكلام ويجعله أسلس وأيسر. فأنت في الفصحى تقول: يَحْصُدُ الزَّرْعَ، ولم يَحْصُدِ الزَّرْعَ، ولن يَحْصُدَ الزَّرْعَ، فتكون بذلك قد حرّكت الدال في كل هذه الأحوال، ولكن النظام الإعرابي يتطلب في الجملة الأولى أن تكون الدال مضمومة، وفي الثالثة أن تكون الدال مفتوحة، وفي الثانية أن تكون ساكنة، سوى أنها حرّكت تحقيقاً لتسهيل وصل الكلام. وكانت الحركة هي الكسرة تمييزاً لها من الضمة المُختصة بالرفع، والفتحة الدالة على النصب. وهذا لا يُحدث لبساً، لأن الكسر ليس من خصائص الأفعال إلا في حالة تزيل اللبس كهذه .

وفي العاميات التي انفرط عقد النظام الإعرابي فيها، ومالت إلى التسكين، لم يُستغن عن تحريك الدال في نحو هذه الجملة، وذلك لتحقيق غرض الوصل. وقد حرّكت الدال بحركة واحدة، وهي الكسر في بعض اللهجات أو الفتح في أخرى. ولو

1 انظر الزجاجي: الإيضاح في علل النحو 69، و إبراهيم مصطفى: إحياء النحو 48.

2 انظر الزجاجي: الإيضاح في علل النحو 70-71.

3 انظر إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة 224.

4 انظر داود عبده: أبحاث في اللغة العربية 97-129.

قلنا في الفصحى: رأيت ابنَ العم، وهذا ابنُ العم، وسلّمت على ابنِ العم، لكانت النون في ابن الأولى محرّكة بالفتحة، وفي الجملة الثانية محرّكة بالضمّة وفي الثالثة محرّكة بالكسرة، وهذا التتوّع من مقتضيات النظام الإعرابي. ولكن التحريك في حدّ ذاته - بغضّ النظر عن النظام الذي يتحكّم في نوع الحركة - يُعدّ أمراً ضرورياً، لتوصيل الكلام. وهذا ما يحدث في اللهجات التي اختلفت منها الحركة الإعرابية، فهي لا تلتزم نظاماً معيناً يتحكّم في نوع الحركة، إلا أن الحركة لم يُستغنَ عنها؛ وذلك حتى يتحقّق وصل الكلام.

ويقتضي النظامُ الإعرابي أن نقول في الفصحى: زارت زينبُ أختها، وذلك برفع زينب ونصب أخت، وأمّا في العاميات فأنت تسكّن زينب، وتسكّن أخت، فالتحريك هنا ليس متطلباً للوصل، وإنما هو متطلب للنظام الإعرابي في الفصحى، ولذا سقط من العاميات، وسكّنت فيها الكلمات، إلا لغايات الوصل.

وعلى هذا فالتحريك متطلب وظيفي، يفرضه النظام الإعرابي، مرتبطاً بالمعنى أو غير مرتبط به، تفرضه الحاجة إلى وصل الكلام. وأمّا تتوّع الحركة - ضمّاً أو فتحاً أو كسراً - فيتحكّم فيه النظام الإعرابي، ولا أهميّة لهذا التتويج المبرمج، لغايات وصل الكلام.

ولا يقال: ثمة لغات كثيرة في العالم تشمل كلمات كثيرة تنتهي بحركة، ومع ذلك لا يستطيع أحد لا يعرف اللغة التي يسمعها أن يحدد فواصل الكلمات في الجملة، لا يقال ذلك، لأن الحديث هنا عن الحركة الإعرابية بوصفها عاملاً من عوامل وضوح شخصية الكلمة في الجملة. ولذا كان الحديث هنا عن اللغة التي يعرفها المرء، وليس اللغة التي يجهلها؛ إذ لا يُتطلّب من هذا العامل المساعد أن يكون كافياً وحده في فرز كلمة عن أخرى، فلا شك أن ابن اللغة يستحضر عوامل متعددة تعينه في فهم المعنى المراد، ومن ذلك: السياق، والصياغة الصرفيّة، ومدلول الكلمة مفردة.

وعلى هذا كان المعول على عامل السياق في معرفة معاني الكلمات، في جناس تام من نحو:

عَضْنَا الدهر بنابه ليت ما حلّ بنا به

وأما حركة أواخر الكلمات فيخبو شأنها في مثال كهذا، ويصبح المعول على عامل السياق أو عوامل أخرى. ولذا كان من غير الصواب، إذا لم تكن نعرف لغة بعينها، والملايسات المتعددة التي تخص تلك اللغة، أن نتخيل أننا بالحركات وحدها على أواخر الكلمات، قادرون على معرفة حدود الكلمات فيها، فهذه الحركات عامل من عوامل كثيرة، وإلا فليس للمرء أن يتخيل بالحركات وحدها، أنه يمكن أن يعرف حدود كلمات في جملة من نحو: إن الله يُحبّ إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه، إذ قد يترتب على اعتماده على عامل الحركات **وَحْدَهَا** أن يتوهم حدوداً عشوائية لكلمات تلك الجملة. وهذا ما يمكن تخيله مثلاً من قارئ فارسي يعرف الحرف العربي فقط، ثم يسمع تلك الجملة، من غير معرفة منه بالعربية. ولذا كان الحديث هنا عن حركة أواخر الكلمات، بوصفها عاملاً من عوامل أخرى لا تغفل لمن يعرف لغة بعينها.

الحركة ومنع اختلاط الكلمات في الجملة

الحركة بمنزلة الفاصل الصوتي الذي يحول دون اختلاط الكلام. فما يفصل كلمة عن كلمة هو الحركة. ولما كانت العربية الفصحى مُعربة، كانت الحركة فاصلاً موجّهاً بنظام معروف.

وعلى هذا، فالنظر في هذا المقام، إلى ما يمكن أن يترتب على إلغاء الحركة الإعرابية، ليس من جانب الوظيفة والمعنى، وليس من جانب تسهيل وصل الكلام، وإنما هو من قبيل اختلاط الكلمات في الجملة، الذي تتعرض له هذه الكلمات، في النطق الانسيابي المُستَرسَل، وليس في النطق البطيء المتكلف.

ففي بعض اللهجات التي فقدت الحركة الإعرابية قديماً وحديثاً، قد يختلط آخر كلمة بأول الكلمة التي تليها، اختلاطاً قد يتجم عنه إدغام كامل، أو إدغام اختلاسي، أو

اختلاف ما، يطرأ على أحد الصوتين، أو عليهما معاً. وهذا لا يعني أن الإدغام ملغى فيما بين الكلمات في الفصحى. فهو حاصل بمقدار، غير أن هذا المقدار سيكون مُتَقَلِّباً للغة، مُجَهِّداً للفهم، وخصوصاً حين يكون متفاوتاً من لهجة إلى أخرى. ولننظر في أمثلة مما قد يجري على نُطْق بعض التعبيرات المضبوطة بالحركة الإعرابية، أو حركة البناء تارة، وغير المضبوطة بأي منها تارة أخرى، في الجدول الآتي، الذي نُنَبِّعه لاحقاً بشواهد واسعة وردت فيها قراءات قرآنية:

الصوت	التعبير بالحركة	التحول المترتب	على إلغاء الحركة	
الناء	نَبَيْتَ تَفَاح	نَبَيْتَفَاح	ت + ت = تَ	
	نَحَتَ ثَامِر	نَحْتَامِر	ت + ث = ثَ	
	نَحَتَ جَمِيل	نَحَجْمِيل	ت + ج = جَ	
	نَحَتَ دَاوُد	نَحْدَاوُد	ت + د = دَ	
	نَحَتَ ذَلِكَ	نَحْذَلِكَ	ت + ذ = ذَ	
	نَحَتَ زَهِير	نَحزَهِير	ت + ز = زَ	
	نَحَتَ سَمِير	نَحسَمِير	ت + س = سَ	
	نَحَتَ شَاهِر	نَحشَاهِر	ت + ش = شَ	
	نَحَتَ صَالِح	نَحصَالِح	ت + ص = صَ	
	نَحَتَ ضَيْف	نَحضَيْف	ت + ض = ضَ	
	نَحَتَ طَالِب	نَحطَالِب	ت + ط = طَ	
	نَحَتَ ظَالِم	نَحظَالِم	ت + ظ = ظَ	
	الثاء	بَحَثَ تَوْفِيق	بَحتَوْفِيق	ث + ت = تَ
		بَحَثَ ثَامِر	بَحْتَامِر	ث + ث = ثَ
بَحَثَ جَمِيل		بَحَجْمِيل	ث + ج = جَ	
بَحَثَ دَاوُد		بَحْدَاوُد	ث + د = دَ	
بَحَثَ ذَلِكَ		بَحْذَلِكَ	ث + ذ = ذَ	
بَحَثَ زَهِير		بَحزَهِير	ث + ز = زَ	
بَحَثَ سَمِير		بَحسَمِير	ث + س = سَ	
بَحَثَ شَاهِر		بَحشَاهِر	ث + ش = شَ	
بَحَثَ صَالِح		بَحصَالِح	ث + ص = صَ	
بَحَثَ ضَيْف		بَحضَيْف	ث + ض = ضَ	
بَحَثَ طَالِب	بَحطَالِب	ث + ط = طَ		
بَحَثَ ظَالِم	بَحظَالِم	ث + ظ = ظَ		

الجيم	خَرَجَ توفيق	تعطيش الجيم لتصبح شينا مجهورة
	خَرَجَ ثامر	تعطيش الجيم لتصبح شينا مجهورة
	خَرَجَ جميل	خَرَجَمِيل ج + ج = ج
	خَرَجَ داود	تعطيش الجيم
	خَرَجَ ذلك	تعطيش الجيم
	خَرَجَ زهير	خَرَزْهَيْر ج + ز = ز
	خَرَجَ سمير	خَرَسْمِير (سين لا تخلو من بعض الجهر من أثر الجيم)
	خَرَجَ شاهر	خَرَشَاهِر ج + ش = ش
	خَرَجَ صالح	خَرَصَالِح (صاد فيها قدر من الجهر)
	خَرَجَ ضيف	تعطيش الجيم
	خَرَجَ طالب	تعطيش الجيم
	خَرَجَ ظالم	تعطيش الجيم
الحاء	بَرَحَ حامد	بِرْحَامِد ح + ح = ح
	بَرَحَ عابد	بِرْعَابِد ح + ع = ع
الخاء	صَرَخَ غريب	صَرغَرِيب خ + غ = غ
	صَرَخَ كبير	الخاء خفيفة: زمن نطقها أقل
الذال	بَرَدَ توفيق	بِرْدَتُوفِيق د + ت = ت
	بَرَدَ ثامر	بِرْدَتُامِر د + ث = ث
	بَرَدَ جميل	بِرْدَجَمِيل د + ج = ج
	بَرَدَ داود	بِرْدَدَاوِد د + د = د
	بَرَدَ ذليل	بِرْدَذَلِيل د + ذ = ذ
	بَرَدَ زهير	بِرْدَزَهَيْر د + ز = ز
	بَرَدَ سمير	بِرْدَسْمِير د + س = س
	بَرَدَ شاهر	بِرْدَشَاهِر د + ش = ش
	بَرَدَ صالح	بِرْدَصَالِح د + ص = ص
	بَرَدَ ضيف	بِرْدَضَيْف د + ض = ض
	بَرَدَ طالب	بِرْدطَالِب د + ط = ط
	بَرَدَ ظالم	بِرْدظَالِم د + ظ = ظ
الراء	سَبَرَ رابح	سَبِررَابِح ر + ر = ر
الزاي	بَرَزَ زهير	بِرَزْهَيْر ز + ز = ز
	بَرَزَ سمير	بِرَسْمِير ز + س = س
	بَرَزَ شاهر	بِرَشَاهِر ز + ش = ش
	بَرَزَ صالح	بِرَصَالِح ز + ص = ص
السين	فَرَسُ زهير	فَرَزْهَيْر س + ز = ز
	فَرَسُ سمير	فَرَسْمِير س + س = س
	فَرَسُ شاهر	فَرَشَاهِر س + ش = ش
		(فيها قدر كبير من الصغير)

	فَرَسٌ صَالِحٌ	فِرْصَالِحٌ س + ص = صَ	
الشين	فَرَشٌ شَاهِرٌ	فِرْشَاهِرٌ ش + ش = شَ	
الصاد	فَنَصٌ زَهِيرٌ	فَنَزَهِيرٌ ص + ز = زَ (بشيء من تفخيم المشدّد)	
	فَنَصٌ سَعِيدٌ	فَنَسَعِيدٌ ص + س = سَ (بشيء من تفخيم المشدّد)	
الضاد	أَرْضٌ تُوفِيقٌ	أَرْتُوفِيقٌ ض + ت = تَ	
	أَرْضٌ تُثَامِرٌ	أَرْتُثَامِرٌ ض + ث = ثَ	
	أَرْضٌ جَمِيلٌ	أَرْتُجَمِيلٌ ض + ج = جَ	
	أَرْضٌ دَاوُدٌ	أَرْتُدَاوُدٌ ض + د = دَ	
	أَرْضٌ ذَلِيلٌ	أَرْتُذَلِيلٌ ض + ذ = ذَ	
	أَرْضٌ زَهِيرٌ	أَرْتُزَهِيرٌ ض + ز = زَ	
	أَرْضٌ سَمِيرٌ	أَرْتُسَمِيرٌ ض + س = سَ	
	أَرْضٌ شَاهِرٌ	أَرْتُشَاهِرٌ ض + ش = شَ	
	أَرْضٌ صَالِحٌ	أَرْتُصَالِحٌ ض + ص = صَ	
	أَرْضٌ ضَيْفٌ	أَرْتُضَيْفٌ ض + ض = ضَ	
	أَرْضٌ طَالِبٌ	أَرْتُطَالِبٌ ض + ط = طَ	
	أَرْضٌ ظَالِمٌ	أَرْتُظَالِمٌ ض + ظ = ظَ	
	العين	بِرْعٌ حَلِيمٌ	بِرْعُحَلِيمٌ ع + ح = حَ
		بِرْعٌ عَالِمٌ	بِرْعُعَالِمٌ ع + ع = عَ
الغين	بِرْعٌ خَمِيسٌ	بِرْعُخَمِيسٌ غ + خ = خَ	
	بِرْعٌ غَالِبٌ	بِرْعُغَالِبٌ غ + غ = غَ	
الفاء	تِرْفٌ فَقِيرٌ	تِرْفُفَقِيرٌ ف + ف = فَ	
القاف	خَلْقٌ قَلِيلٌ	خَلْقُقَلِيلٌ ق + ق = قَ	
	خَلْقٌ كَثِيرٌ	خَلْقُكَثِيرٌ ق + ك = كَ	
اللام	حَمَلٌ لَمِيسٌ	حَمَلُلَمِيسٌ ل + ل = لَ	
الميم	حَرَمٌ مَنِيرٌ	حَرَمُمَنِيرٌ م + م = مَ	
	سَمَنٌ مَنِيرٌ	سَمَنُمَنِيرٌ ن + م = مَ	
النون	سَمَنٌ نَفِيسٌ	سَمَنُنَفِيسٌ	
	جِبَةٌ هَاشِمٌ	جِبَهُهَاشِمٌ سمنفيس (وفي أحكام التجويد يدغم التتوين مع الياء والواو شبيهي الحركة، كما تدغم النون فيهما)	
الهاء	نَحْوٌ وَاسِعٌ	نَحْوُوَاسِعٌ ه + ه = هَ	
الواو شبه الحركة	سَعْيٌ يُونَسٌ	سَعْيُيُونَسٌ ي (شبه حركة) = وَ	
الياء شبه الحركة		سَعْيُيُونَسٌ ي (شبه حركة) = يَ	

ومما يلاحظ في مجالات التحوّل الصوتي الذي يترتب على غياب الحركة الإعرابية ما يأتي:

1- قد يُدغم الصامت الأخير في الكلمة بالصامت المماثل له في أول الكلمة التالية، وينسحب هذا الحكم على كل صوامت العربية، نحو: بحثٌ ثامر ← بحثامر، وقد يترتب على الإدغام نبر، يظهر على الصوت الثاني منهما. ونكرّر الملاحظة لمن أراد أن يجرب هذا النطق، بأن عليه أن يمارسه بطريقة سلسلة تلقائية، وليس بالنطق البطيء المتكلف، والناس يختلفون اختلافاً ما، في ألوان النطق التي قد تترتب على هذه المماثلة أو الإدغام الذي قد يتأتى عن حذف الحركة الإعرابية، وهذا ما كثرت الإشارة إليه عند القدماء، كقراءة أبي عمرو فيما يذكره ابن مجاهد¹. ولذا فإن من لا تحدث هذه التغيرات الواردة في هذا الجدول، أو بعضها في لهجته، كان عليه أن يحتمل ورودها في لهجة غيره. أو كان عليه أن يراقب وجودها، على نحو ما، في لهجات متنوعة، ومهما يكن، فهي ظواهر لغوية، إن أنكرها مُحدّث في لهجته، فإنه لا يملك إنكارها، بوصفها ظواهر لغوية تشهد بوجودها بعض القراءات القرآنية المعروفة².

وهذه ظاهرة تعرفها العربية وغيرها من أخواتها وغير أخواتها، لأنها تتعلق بالاقتران الصوتي في النطق. ومن ذلك في العبرية³ أن: min=من، و šām = ثمّ(أي: من ثمّ) قد أصبحت بعد إدغام الصامت الأخير في الكلمة min بالصامت الأول من الكلمة التالية šām هكذا: miš/ šām

ومن أمثلة ذلك في الإنجليزية، تحوّل (b) إلى (P) في نحو cub-Pack وتحوّل (k) إلى (g) في نحو black goose وانظر عكس ذلك في نحو egg-cup إذ تحوّل صوت (g) إلى (k). وانظر في الألمانية⁴ إلى نحو:

1 انظر ابن مجاهد: السبعة في القراءات 116-117، و ابن يعيش: شرح المفصل 45/10.
2 انظر ابن مجاهد: السبعة في القراءات 117، وانظر الداني: التيسير 23، وانظر قراءة يعقوب البصري لدى أحمد محمد القضاة وأحمد شكري ومحمد خالد منصور: مقدمات في علم القراءات، 158.
3 انظر Gesenius 839، وانظر ربحي كمال: دروس اللغة العبرية 87.
4 Th. Lewandowski: Linguistisches Wörterbuch I: 70-71

Am Orient-Institut der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft in Beirut.

كيف تحول صوت (t) الأخير من (Institut) إلى (d) بفعل مجاورتها للصوت (d) من الأداة der، وكيف تحولت (n) من كلمة Deutschen إلى (m) بفعل مجاورته للصوت (m) في أول الكلمة التي تليها، وكيف تحول (n) إلى (l) في كلمة Morgenländischen، وكيف تحول الصوت (n) من آخر هذه الكلمة إلى (g) في أول الكلمة التي تليها، وكيف تحول (n) من حرف الجر in إلى (m) بتأثير من صوت (b) في Beirut .

هذا هو حال التداخل النطقي. أمّا في الشكل الكتابي فإن اللغات تسعى -في كثير من الأحيان- إلى ترك فراغ بين الكلمة والأخرى، ليُشعر هذا الفراغ بالحد الفاصل بين الكلمة ومجاورتها، قبل اندماجهما في الجملة. ومن الطريف أن الحبشية تؤكد فصل الكلمة عما بعدها بوضع نقطتين متعامدتين هكذا (:). بينهما. فإذا انتهت الجملة وضعت أربع نقاط هكذا (:).).

2- بعض الأصوات أكثر من بعض في مدى التأثير بوساطة النطقي، فمجموعة أصوات كالطاء والثاء والذال والطاء والذال والتاء متقاربة في بعض صفاتها، ولذا كان تبادل التأثير فيما بينها أشد منه بين أيّ منها وسواها، وحتى هي فإنها تتفاوت فيما بينها قُرباً أو بُعداً. ومن الطبيعي أن يكون التأثير كبيراً بين الأصوات التي تكثر بينها المواصفات التي تجمعها، كالمرج والسدّة، والجهر أو الهمس¹. وعلى هذا فالأصوات التي يجمعها حيز واحد "لا يمتنع بعضهم من بعض في الإدغام، لأنهن من حيز واحد"². وهذا يعني أن (أصل القلب في الحروف، إنما

1 انظر رمضان عيد التواب: التطور اللغوي 22، وعبد الصبور شاهين: أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي 131.

2 انظر سيبويه: الكتاب 4/464.

هو فيما تقارب منها)¹. قال ابن مجاهد: "وكان (يعني أبا عمرو) يدغم الحرف في المقارب له في المخرج إذا كانا من كلمتين، فيدغم الميم في الباء إذا تحرك ما قبل الميم، مثل "بأعلم بالشاكرين"² ويدغم النون في اللام إذا تحرك ما قبلها متحرك... مثل: "لن نؤمن لك"³، و"وتبين لكم"⁴، ويدغم القاف في الكاف، والكاف في القاف إذا كانا من كلمتين وما قبلها متحرك، ويدغم الدال في الذال إذا سكن ما قبل الدال فكان الحرف في موضع خفض، مثل قوله: "من بعد ذلك"⁵. ولا شك في أن قواعد المماثلة والمخالفة تتحكم في مدى تأثير بعض الأصوات في بعض، فالنون مثلاً تتحول إلى ميم قبل الأصوات الشفوية كما في المثالين الصرفيين: ذَنْبٌ وَذَمْبٌ، وَيَمْحِي وَيَمْحِي، وكما في المثال النحوي: لِيَمُونَ بِاسْمٍ ← لِيَمُومَ بِاسْمٍ.

3- قد تتغير بعض خصائص الصوت، كأن يميل صوت للتعطيش والهمس، متأثراً بالصوت الذي يليه، انظر: نَهْجُ تَوْفِيْقٍ ← نَهْشُ تَوْفِيْقٍ (بالشين المجهورة)، أو كأن تُشْرَبُ السَيْنُ المَهْمُوسَةُ بشيء من الجهر (نَهْجُ سَمِيرٍ ← نَهْسَمِيرٍ) ومن الطبيعي أن يتمايز نطق عن نطق، بمقادير يتفاوت فيها الناس، وتخضع لاعتبارات عضوية أو نفسية.

وللمرء أن ينصّور أن هذه الأشكال الكتابية، لا تعدو أن تكون وسائل قاصرة عن أن تعكس بدقة وصف ما يمكن أن يسمعه المرء. وقد تغري هذه الأشكال الكتابية بمحاولة أن تنطق على وجه يخالف المراد المنطوق. فالذي ينطلق من المكتوب ليتمثل

1 انظر ابن جني: سر صناعة الإعراب 166/1.

2 سورة الأنعام، الآية 53.

3 سورة البقرة، الآية 55.

4 سورة إبراهيم، الآية 45.

5 سورة المائدة، الآية 43، وانظر ابن مجاهد: السبعة في القراءات 118.

به المنطوق، قد يقع في وَهْمٍ أن يكون المقصود من: نَهَشُ توفيق، تجسيداً كتابياً للفعل: نَهَشَ، وليس للفعل نهج. وقل مثل ذلك في نحو: بَرَدَ صالح ← برصالح، إذا تعامل القارئ مع هذا الرمز الكتابي كما لو كان تجسيداً لـ: بَرَصُ صالح. وهذا أمر مختلف.

4- الصامت الذي فقد حركته الإعرابية هو الذي قد يتعرض للتحوّل إلى جنس الصامت الذي يليه، من الكلمة اللاحقة، ثم يدغم فيه. ويبدو أن السبب في ذلك يعود إلى مدى اطمئنان الناطق إلى أن المقدار الذي نُطق من الكلمة الأولى لا يؤثر فيه كثيراً انتقاصُ الصوت الأخير، فحين يقال في نَحَتَ جميل: نَحَمَيْل، يكون الأمر أوضح بكثير مما لو حدث العكس، فكان المتحوّل هو الصوت الأول من الكلمة التالية، وليس الصوت الأخير من الكلمة السابقة، كأن يقال في: نحت جميل: نَحَمَيْل. فهذا شكل يؤدي إلى اللبس الشديد الذي لا يلجأ إليه النطق السوي. قال ابن يعيش في أسباب منع الإدغام (أن يؤدي فيه الإدغام إلى لبس)¹. وعلى هذا فنحن أمام درجات من التعبير، هي أن يقال:

- أخذ تُفاحاً، فتكون الحركة الإعرابية فاصلاً صوتياً كافياً لإزالة الغموض، دون التضحية بأيّ صوت من أصوات الكلمات. وهذا هو النطق الفصيح الواضح الذي على أساسه فُعدت اللغة، ولم تقعد على أساس لهجي، حتى وإن قُرئت به بعض الآيات القرآنية الكريمة.

- أختُفاحاً، بتحول الذال إلى تاء وإدغامها في التاء، وبذا يكون قد تحقّق مبدأ أن "يستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد" على حدّ تعبير سيبويه²، وفي هذا قدر من الغموض بدرجة قليلة من اللبس، يساعد على إزالتها الاتكاء على السياق. وهو نطق

1 ابن يعيش: شرح المفصل 122/10.

2 سيبويه: الكتاب 4/478.

قديم جاءت عليه بعض القراءات القرآنية كقراءة أبي عمرو لقوله تعالى: "إِذْ تَسَوَّرُوا"¹، ولكنه لم يُعتمد معياراً للفصحى.

- أَخَذُفَاحًا، بتحول التاء إلى ذال، وإدغامها في الذال، وفي هذا لبس وإفساد لا يَحُلُّه الاتكاء على السياق أو سواه، وهو مرفوض في الفصحى، وكأنما لها عقل باطني يتأباه لشدة غموضه.

ومن الملاحظ هنا أن التاء قابلة للتحويل إلى ذال في نحو: نَحَتَ دَلِيلٌ ← نَحَذَّلِيلٌ، والذال قابلة إلى التحوّل إلى تاء، في نحو: أَخَذَ تَوَفِيقٌ ← أَخْتَوَفِيقٌ. غير أن هذا التحول غير مطلق، بل هو تحوّل مربوط بالمعنى، فلا بدّ من أن يكون المتأثر المتحوّل هو الصوت الذي فقد الحركة الإعرابية، وهو الصوت الأخير من الكلمة، وليس الصوت الأول من الكلمة التي تليها، وذلك حفاظاً على المعنى، وبُعداً عن اللبس المعنوي. ومع ذلك فإن الغموض قد يقع، ففي هذا المثال لا فرق بين نطق: نَحَذَّلِيلٌ na/had/da/līl أي نحت ذليل بالإدغام، ونحا الذليل (من نحا ينحو) na/had/da/līl

ولا أثر في هذا المقام، لقوة الصوت وضعفه، بخلاف ما ذهب إليه مكي بن أبي طالب القيسي، الذي ربط مبدأ الإدغام بقوة الحرف وضعفه، فالأقوى هو المؤثّر والمدغم به هو الأضعف². لا أثر لذلك، ما دام الأمر يتعلق بمسألة جوهريّة، في أداء المعنى الذي هو الأصل الأهم في وظيفة اللغة. والأغلب الأعم في قانون المماثلة - في الفصحى - يقوم على أن الصوت السابق هو الذي يتغيّر، سواء أفي الكلمة كان ذلك أم في الجملة المؤلفة من كلمتين، ولننظر إلى التاء التي تغيّرت إلى دال في مُنَدَّرٌ ← مُدَدَّرٌ، وذهبت دعد ← ذهب دعد. وقد تغيّرت الدال مماثلة للتاء في عُتَمَ (عُدَّتُمْ)، وفت تمشى (قد تمشى). ولو كانت قاعدة المماثلة بين الأصوات الصحيحة في

1 سورة ص، الآية 21، وانظر ابن مجاهد: السبعة في القراءات 119.

2 القيسي: الكشف 135/1-136.

العربية الفصحى عكس ذلك لجاءت مُدْتَرِّ بالثناء، ولفظت عَتَمَ بالبدال. على أن اللبس قد يحدث حين يقال بِدُتْم بتحويل الدال إلى تاء، فيلتقي التعبير صوتاً بـ: بِتَم، من المبيت.

صحيح أننا اعتدنا أن نرى الأصوات القويّة تؤثر في تاء الافتعال اللاحقة بها - وهي الضعيفة- إذ تتحول إلى دال مجهورة (والثناء مهموسة) في نحو: ادتعى ← ادعى، أو تتحول إلى طاء مُطبَّقة (والثناء غير مُطبَّقة) في نحو: اصتقى ← اصطفى، إلى غير ذلك من أمثلة صرفية مناطها بنية الكلمة الداخلية. وقد يكون الأصل التاريخي لصيغة افتعل هو المسؤول عن هذا الذي نراه في هذه الصيغة التي نرى فيها أن الذي تغيّر هو اللاحق لا السابق، على اعتبار أن الأصل التاريخي لوزن افتعل هو اتفعل، وعلى هذا فإن أصل ارتّهر هو: ارتّهر ← ارتّهر ← ازدّهر، واتصّفى ← اطّصفى ← اصطّفى. وتؤكد النظرة المقارنة الأصل التاريخي لوزن اتفعل، فهو في كثير من اللغات السامية¹ بتقديم تاء الافتعال على فاء الكلمة، فمقابل اقتتل في العربية تأتي: taqátla، في العربية الجنوبية، وفي العبرية: hitqāṭel، وفي الآرامية: hitqéṭel وفي السريانية: 'etqtel.

ومهما يكن، فإن المماثلة الرجعية (إذ يؤثر الثاني في الأول فيقلبه إلى صوت من جنسه) هو السائد في العربية. وأمّا العكس، أي المماثلة التقدمية (إذ يؤثر الأول في الثاني) فهو الأقل وقوعاً². هذا في البنية الصرفية، أمّا في التركيب النحوي، وبناء الجملة، فالعلاقة بين الأصوات تختلف إذ المماثلة الرجعية تقوم على تأثير الثاني في الأول.

وأمثال هذه التحوّلات تلتمس النطق الأيسر، وفي هذا تحقيق لمبدأ الاقتصاد اللغوي، على ألاّ يمسّ جانب المعنى، فإنّ مسه فإن اللغة تضحي بالأيسر نطقاً، ولا تُضحي بالمعنى. وعليه فإن اللغة لم تُجزر أن يتحوّل الصوت الأول من الكلمة التالية،

1 انظر بروكلمان: فقه اللغات السامية 130.

2 انظر عبد الصبور شاهين: المنهج الصوتي للبنية العربية 210.

وأجازت أن يتحول الصوت الأخير من الكلمة الأولى (صاحب الحركة الإعرابية المحذوفة) في نحو: أختفأحاً. مع أن المحذوف هنا هو الذال، وهو الأقوى بحكم أنها مجهورة، والتاء مهموسة. ومن شواهد ذلك لدى أبي عمرو فيما يذكره ابن مجاهد في قراءة قوله تعالى: "ولقد تركناها"¹، إذ تحولت الدال الساكنة إلى تاء، وأدغمت في التاء من أول الكلمة التالية²، وقد تحولت الدال إلى زاي في "ولقد زيتا السماء"³، أو تتحول إلى سين في نحو: "قد سمع"⁴ أو شين في نحو: "قد شغفها"⁵ أو صاد "ولقد صرقناه"⁶. وقس على ذلك التاء في: وجَدْتُ، إذ هي تنطق: وجتْ، ولو نطقت: وجدُّ، لترتب على ذلك اللبس في المعنى، بخفاء الفاعل، وفي هذا يقول سيبويه مُعلقاً على بيت علقمة بن عبدة التميمي:

وفي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبِطَ بِنِعْمَةٍ فَحُقَّ لَشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنْوبٍ

"وأعرب اللغتين وأجودهما ألا تقلبها طاء، لأن هذه التاء علامة الإضمار، وإنما تجيء لمعنى، وليست تلزم هذه التاء الفعل"⁷.

وعلى هذا فلا معنى لإنكار الزجاج - فيما ذكر الزركشي⁸ - على أبي عمرو إدغام الراء في اللام، في نحو: "الأنهار له" ← "الأنها له". وعلى هذا فإن أبا عمرو يدغم الراء في اللام من "سخر لنا"¹.

1 سورة القمر، الآية 15.

2 انظر ابن مجاهد: السبعة في القراءات 119.

3 سورة الملك، الآية 5.

4 سورة المجادلة، الآية 1.

5 سورة يوسف، الآية 30.

6 سورة الفرقان، الآية 50، وانظر ابن مجاهد: السبعة في القراءات 119.

7 سيبويه: الكتاب 471/4-472.

8 الزركشي: البرهان 322/1.

5- ويُشار هنا إلى أن التغيّر المترتّب على زوال الحركة الإعرابيّة يترتّب عليه شيء آخر، وهو عدد المقاطع (إذ هي تَقَلُّ عدداً)، وتختلف نوعاً، ففي قولنا: أخذ تُفَاحاً = أ / خ / ذ / تُف / فا / حاً = (6 مقاطع). وفي قولنا: أختُفَاحاً = أ / خت / تُف / فا / حاً = (5 مقاطع)، فقد ترتب على الإدغام وزوال الحركة الإعرابيّة نقص مقطع من المقاطع، وتغيّر في نوعها، فالمقاطع: خ + ذ + تُف، أصبحت: خت + تُف. وبذا تتشكّل المقطع القصير المغلق (خت)، وهكذا يكون السامع قد (برمّج) نفسه على أن يسمع هذا النوع من المقاطع في مثل هذه المواقع، إن ضحى الناطق بالحركة الإعرابيّة، فتحدّث المماثلة، أو الإدغام. وهذا لا يرقى إلى أن يصبح وظيفة دلاليّة للمقطع (القصير المغلق)، بيّناً أنه يطرد بكثرة في هذه المواقع. وهو يتشكّل ليكون علامة من علامات اتصال كلمتين في جملة من نحو: "قد أفلح"²، عند من يحذف همزة القطع في (أفلح) كما في قراءة ورش، قال ابن الباذش: كان ورش يحذف كل همزة في أول كلمة، إذا كان قبلها ساكن، وينقل حركتها إليه، أيّ حركة كانت، إذا كانا من كلمتين، ما لم يكن الساكن حرف مدّ ولين أو ميم جمع. وهذا إذا وصل³ فحرصاً على درج الكلام، عند أصحاب هذه اللهجة، حذفت همزة القطع، وبقيت حركتها وهي الفتح، فترتّب على ذلك أن حركت الدال فتشكّل مقطع قصير مغلق، ليربط بين الكلمتين، وهكذا تكون: qad/'af/la/ha قد تحوّلت إلى qa/daf/la/ha . فالدال الساكنة، بحذف همزة القطع، قد تلتها مباشرة، الحركة التي كانت تلي الهمزة . وقد حدث تغيّر في البنية المقطعيّة، بتداخل الكلمتين (قد) و(أفلح)، فبدلاً من مقطع قصير مغلق (قد) + قصير

1 سورة الزخرف، الآية 13، وانظر الداني: التيسير، 37، انظر أبا بكر الأبياري: البيان في غريب القرآن 83، وانظر ابن مجاهد: السبعة في القراءات 121.
2 سورة المؤمنون، الآية 1، وانظر ابن الباذش: الإقناع في القراءات السبع 388/1، وابن جني: المحتسب 158/2.
3 ابن الباذش: الإقناع في القراءات السبع 388/1، وانظر السمين الحلبي: الدر المصون 313/8.

مغلق (أف) من (أفلح)، أصبحت بعد تداخل الكلمتين هكذا: مقطع قصير مفتوح (ق) + مقطع قصير مغلق (دق).

مما يترتب على حذف حركة آخر الكلمة في وسط الكلام وفي آخره:

وقد طرأ أحياناً أن ترتب على إلغاء الحركة جواز التقاء الساكنين في وسط الكلام، وتشكل مقطع قصير مغلق مزدوج الإغلاق، في وصل الكلام، في نحو قوله تعالى: "حيث تؤمرون"، إذ ترتب على إلغاء حركة الضم في "حيث" أن تحوّل التعبير من:

حيثُ تؤمرون Hay / tu / tu' / ma / rün (قراءة حفص)

إلى: حيثُؤمرون Hayt / tū / ma / rün (قراءة أبي عمرو)

وفي هذا المثال:

1- اختصار لعدد المقاطع

2- حدوث مماثلة إذ أصبحت التاء تاء

3- التقاء ساكنين في مقطع واحد، في وسط الكلام: الباء (شبه الحركة) والتاء، وهذا يحدث في الفصحى، في الوقف العارض للسكون، وليس في وسط الكلام.

4- تسهيل الهمزة الساكنة، ومدّ الصائت القصير (الضمة) قبلها (tū ← tu')

ومن ذلك إدغام الشين في السين، وتكوّن مقطع قصير مغلق مزدوج الإغلاق، كما في قوله تعالى: "إلى ذي العرش سيلاً"¹ هكذا: ars/sa، وانظر إدغام الضاد في الشين وتكوّن مقطع قصير مغلق مزدوج الإغلاق، في قوله تعالى: "لبعض شأنهم"² هكذا: ba's/sā، ومن ذلك إدغام الدال في التاء وتكوّن مقطع مزدوج الإغلاق، في قوله تعالى "من الصيد تناله"³ هكذا: sayt/ta. وكلها قراءات نصّ عليها¹.

1 سورة الإسراء، الآية 42.

2 سورة النور، الآية 62.

3 سورة المائدة، الآية 94.

والمعلوم في القوانين الصوتية العربية أن المقطع القصير مزدوج الإغلاق ويتشكل في الوقف، في نحو "والعَصْر" wal/°aṣr، "إن الإنسان لفي خسر" ḥusr، وذلك لأن الصوت الأخير الذي يدخل حال الوصل في البنية المقطعية المكوتة منه ومن الحركة الإعرابية (والعصر wal/°aṣr/ri) يكون قد فقد بالوقف هذه الحركة، وانضم من ثم إلى المقطع السابق، إذ لا يُبنى به وحده أي مقطع، وعلى هذا كان المقطع الأخير من الكلمة - في مثل هذه الحالات - مقطعاً مزدوج الإغلاق، وهو ما ضاقت به بعض اللهجات، ففرت منه، بتغيير صرفي في بنية الكلمة، وفقاً دون الوصل، إذ تصبح "والعَصْر" ← "والعَصْر" wal/°aṣir فيكسر الصاد من هذا الاسم الثلاثي ساكن الوسط - حال الوقف عليه - يكون أصحاب هذه اللهجة قد تخلّصوا من هذا النوع من المقاطع، حتى في موطنها المعتاد عند غيرهم. قال السمين الحلبي: "قال الهذلي: "والعَصْر، والصَّبْر، والفَجْر، والوَتْر، بكسر ما قبل الساكن في هذه كلها" يقصد الساكن الأخير².

ولننظر إلى أمثلة أخرى تترتب على حذف الحركة الإعرابية من آخر الكلمة أو الجملة، إذ تتهيأ الفرصة صوتياً لتشكل مقاطع، منها:

1 - المقطع القصير المغلق نحو: يسلب yas/li/bu ← yas/lib

وهذا يدين الكلمات التي يسبق المقطع ذا الحركة الإعرابية فيها، مقطع قصير مفتوح. وبعد حذف الحركة ينضم الصوت المتبقي إلى المقطع القصير المفتوح قبله، فيتشكل مقطع قصير مغلق. وهذا ظرف تتهيأ فيه الفرصة لازدياد عدد مرات ورود هذا المقطع في الكلام وفقاً. بيد أن هذا المقطع (القصير المغلق) نجده حراً مبنوثاً في كل

1 انظر الداني: التيسير 23-24.

2 السمين الحلبي: الدر المصون 102/11.

موضع من الكلام، بعكس المقطعين: مزدوج الإغلاق، والطويل المغلق، فهما خاصان في العادة، بما يسمى الوقف عارض للسكون.

2- تشكل المقطع القصير مزدوج الإغلاق (المصمت) نحو: جاء زيد zay/dun ← zayd إذ بحذف الحركة تحوّل المقطع القصير المغلق إلى مزدوج الإغلاق. وانظر كذلك: جاء السعد الكريم as/sa^c/du وفي الوقف ← as/sa^cd أي بحذف الحركة الإعرابية تحول المقطع القصير المفتوح إلى مزدوج الإغلاق وهذا شأن الكلمات التي يسبق المقطع ذا الحركة فيها، مقطع قصير مغلق، وبعد حذف الحركة الإعرابية ينضم الصوت المتبقي من بعد حذف الحركة، إلى المقطع القصير المغلق بعده، فيتشكل المقطع القصير مزدوج الإغلاق. وهو مقطع عارض بسبب الوقف، وليس حراً، أي مقيد الوجود في الفصحى بهذا الموقع.

3- تشكل المقطع الطويل المغلق نحو:

ودود wa/duu/dun ← wa/duud

الودود 'al/wa/duu/du ← 'al/wa/duud

وهذا يدين الكلمات التي يسبق المقطع ذا الحركة الإعرابية فيها مقطع صائته طويل. وبعد حذف الحركة الإعرابية ينضم الصوت المتبقي إلى المقطع الطويل المفتوح قبله، فيتشكل المقطع الطويل المغلق. وهذا المقطع عارض بسبب الوقف، وهو مقيد بهذا الموضع غالباً.

إذاً، فالظروف الصوتية السابقة، قد هيأت الفرصة لزيادة عدد هذه المقاطع الثلاثة السابقة، وفقاً. وأما إذا تحركت هذه الكائنات اللغوية (الكلمات) باتجاه ما بعدها- وصلاً- فإنها تُفرد أجنحتها ممثلة في الحركة الإعرابية، لتصل نفسها بما بعدها.

ومما يُلاحظ في سلوك اللغة أنها مع الأسماء المنونة المنصوبة غير المنتهية بالتاء المربوبة، تسلك سلوكاً مميزاً خاصاً مخالفاً لوضعي الجر والرفع، لا يتشكل معه المقطع المغلق وفقاً، فيقال: ودوداً waduudaa (بدل waduud).

4- تشكل المقطع المفتوح، طويلاً أو قصيراً. فالطويل نحو: يرمي yarmii . وأصله بالقياس إلى غير المعتل: يرمي yar/mi/you . وبعد حذف الحركة الإعرابية تصيح الكلمة من مقطعين: yar/miy، وتسهيلاً لنطق المقطع الثاني الذي اشتمل على شبه الحركة، قُلب شبه الحركة y إلى ما يناسب الحركة التي تسبقه i، وبذا تشكلت الحركة الطويلة yar/mii في آخر الكلمة.

وأما المقطع القصير المفتوح في الوقف، فنحو:

لم يرم lam yar/mi إذ ترتب على الجزم تقصير المقطع من يرمي yar/mii بغير الجزم، إلى yar/mi مجزوماً.

والحال نفسها في أفعال بالألف، من نحو: يرقى ويرقى، وأفعال بالواو، من نحو: يلهو ويله. يرقى yar/qaa وأصلها بالقياس على الصحيح yar/qa/you مع الحركة الإعرابية ← ومن دونها yar/qay ← yar/qaa . ولم يرق yar/qa وأصلها يرقى yar/qaa ← لم يرق yar/qa

ويلهو yar/huu وأصلها بالقياس على الصحيح yar/hu/wu مع الحركة الإعرابية ومن دونها ← yar/huw ← yar/huu ولم يله yar/hu وأصلها يلهو yar/huu ← لم يله yar/hu

ومما يترتب على حذف الحركة في الوقف على نحو (هذه) من نحو قوله تعالى: "وإن تُصَبِّهُمُ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ"¹ أن تنتهي الكلمة بتشكّل المقطع المعتاد، وهو القصير المغلق hā /dih، وفي الوصل: "يقولوا هذه من عندك" hā /di/hī أي تنتهي الكلمة بتشكّل مقطع طويل مفتوح. أمّا لو كانت (هذه) موصولة وصللاً يترتب عليه المقطع الطويل المغلق، فإن حركتها ستُقصّر، تحاشياً للمقطع الطويل المغلق وصللاً، وعلى هذا فإن

1 سورة النساء، الآية 78.

(هذه من قوله تعالى "ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها"¹ تتطرق وصلأ بما

بعدها hā /dī / hil / qar /yah

ولولا ذلك ل جاء المقطع الطويل المغلق في وسط الكلام hā /dī/hīl وهذا مما يتحاشاه نظام المقاطع العربية. ويقاس على ذلك نحو: "لَعَلِمَةُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ"² وغير ذلك كثير.

وانظر كذلك (به) من قوله تعالى: " أذَاعُوا بِهِ "³ bih وقفاً، و / hī bi وصلأ. ولو ترتب على الوقف تشكل مقطع طويل مغلق، في نحو رَدَّوهُ من قوله تعالى "ولو رَدَّوهُ إِلَى الرِّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ"⁴، فَإِنَّ حَرَكَةَ الضَّمِيرِ وَصَلًّا تَكُونُ قَصِيرَةً بِمَقْطَعٍ قَصِيرٍ مَفْتُوحٍ rad/dūh : rad/dū /hu وليست طويلة، وقد كان هذا تحاشياً لتتابع مقطعين طويلين مفتوحين في آخر الكلمة، مع أنه يحدث أحياناً في نحو: لم يقولوا = qū/ lū / ya حين لا تكون مندوحة عنه، إذ لو قصرت واو الجماعة لحدث لبس مع المفرد.

ولو نظرنا إلى الوقف على نحو نَوْتِيهِ من قوله تعالى: "فسوف نؤتيه أجراً"⁵، فإنَّ الوقف كان على مقطع طويل مغلق، وهي في الوصل نَوْتِيهِ، بالكسرة القصيرة nu / , tī / hī بدلاً من nu / ' / tī / hī وهذا من باب تحاشي التتابع بين مقطعين طويلين مفتوحين في هذا الموقع، مع أنه يحدث في مواقع أخرى، وسوف يستطيل المقطع الأخير من لم يؤتِهِ المجزومة وقفاً:

yu / ' / tih ← yu / ' / ti / hī فهنا لم يحدث تتابع مقطعين مفتوحين، وعلى هذا فإنَّ يَوْتِيهِ وقفاً(المنتهية بالمقطع الطويل المغلق) تصبح وصلأ yu / , tī / hī (الحركة الأخيرة قصيرة، والحركة في المقطع ما قبل الأخير طويلة).

1 سورة النساء، الآية 75.

2 سورة النساء، الآية 83.

3 سورة النساء، الآية 83.

4 سورة النساء، الآية 83.

5 سورة النساء، الآية 74.

أمّا يؤتته المجزومة وقفاً $yu, / tih$ فتصبح وصلأً $yu, / ti / hī$ (الحركة الأخيرة طويلة والحركة في المقطع ما قبل الأخير قصيرة) . وهذا أمر مطّرد في هذا النوع من الضمائر المتصلة بالأفعال وانظر الأمر نفسه في نحو: فيه (وقفأً) fih (المنتهية بالمقطع الطويل) تصبح وصلأً $fī/hi$ (الحركة الأخيرة قصيرة، والحركة في المقطع ما قبل الأخير طويلة) . وعلى عكس ذلك ما حدث في: به (وقفأً) bih المنتهية بالمقطع القصير المغلق تصبح وصلأً $bi / hī$ ، (حركة المقطع الأخير طويلة، وحركة المقطع الذي يسبقه قصيرة).

فكأنما هو قانون لغوي:

إذا تشكل بالوقف على آخر الكلمة مقطع طويل مغلق فإن نهاية الكلمة بالوصل تكون بمقطع قصير مفتوح. نحو:

فيه، أخوه، بنوه، بنيه، مُنأف ← فيه، أخوه، بنيه، مُنأه

ما لم يتشكل بالوصل مقطع طويل مغلق في وسط الكلام وهو يترتب على تداخل الكلام، فإنه في حالة كهذه يُقصر (نحو: فيه الخير، أخوه النبيه).

وإذا تشكل بالوقف على آخر الكلمة مقطع مزدوج الإغلاق، نحو: عليه $ʿa/layh$ ، وكتاييه $ki / tā / bayh$ ، وعصوه $ʿa / šawh$ فإن نهاية الكلمة بالوصل تكون بمقطع قصير مفتوح كما هي الحال بالكلمة التي يتشكل بالوقف على آخرها مقطع طويل مغلق أي تستوي أحوال: فيه، وأحوال: عليه، ويقصر فيهما المقطع وصلأً إذا تشكل المقطع الطويل المغلق في وسط الكلام .

وأمّا إذا تشكل بالوقف على آخر الكلمة مقطع قصير مفتوح فإنه عند الوصل يصبح المقطع الذي تنتهي به الكلمة طويلاً، ما لم يترتب على ذلك تشكل مقطع طويل مغلق في وسط الكلام نحو: به bih ، بهي $bi / hī$ ، و: به الخير، بالقصير المغلق.

وأمّا إذا كان ما قبل المقطع الذي يحمل حركة الآخر مقطوعاً قصيراً مغلقاً، نحو: منه min/hu فإن المقطع الذي يحمل الحركة الإعرابية يكون قصيراً وصلأً، وليس

طويلاً، أي لا يقال: min/hū لأن المقطع القصير المغلق الذي قبله، هو بمنزلة الطويل في استغراقه الزمني.

التمائل بين نون التتوين والصوت الأول من الكلمة التالية له

وقد يحدث التماثل (الإدغام) في الفصحى بين الكلمة المنوثة والكلمة التي تليها، أي بين نون التتوين في الكلمة، والصوت الذي يليه من الكلمة اللاحقة، في نحو: حَصْنٌ مَنِيْعٌ ← حِصْنُ مَنِيْعٍ، وهو مُلْزَمٌ في القراءة القرآنية، وليس مُلْزَمًا في النطق العادي، إذ هو لا يستهدف التجويد والتحسين.

بيد أن هذا التماثل قد جاء بعد الحركة الإعرابية، أي بعد أن تكون الكلمة قد نُطِقت أصواتها بالكامل، ومن ثم جاء التماثل بين نون التتوين والصوت الذي يليه ليحقق الوصل، مع أمن اللبس الذي يترتب على التماثل من غير حركة إعرابية.

ومع ذلك فإن مغبة اللبس لا تؤمن في أمثلة أخرى، يُدغم فيها التتوين مع الصوت الأول من الكلمة التالية للكلمة المنوثة. فهب أننا استبدلنا بكلمة: منيع، في المثال السابق كلمة: لطيف، فعندئذ يصبح التعبير: حِصْنٌ لَطِيفٌ hiṣ/nun/la/ṭīf. هكذا: حِصْنُ لَطِيفٌ hiṣ/nul/la/ṭīf. وهذا التعبير القائم على موصوف وصفة نكرتين، يلتبس نُطقاً صوتياً بالتعبير المكوّن من مضاف ومضاف إليه (المضاف إليه معرفة) في: حِصْنُ اللَّطِيفِ hiṣ/nul/la/ṭīf. وقياساً على هذا ففي الكلام العادي قد نقول يَنْبِرِي له، أو يَمِيرِي له، وعَنْ ماذا تسأل، وعماداً تسأل. ولا يجوز في القراءة القرآنية أن يُفك الإدغام في عمّ يتساءلون.

حذف الحركة الإعرابية وزيادة أعباء السياق

لا شك أن السياق يتحمل عبء الغموض، ويتكفل بتوضيح المعنى، في الفصحى وفي اللهجات، وقد كانت قراءة أبي عمرو بن العلاء تتسم بكثرة التسكين،

ولذا كثر فيها الإدغام. بيّد أن التخفيف عن السياق غاية جعلت اللغويين المعياريين يتشبهون على مرّ العصور، بالحركة الإعرابية لأهميتها الوظيفية في أداء المعنى، ولأهميتها الصوتية التي تسعى إلى وصل الكلام، والوظيفة الصوتية التي تؤدي إلى الوضوح وعدم اختلاط حدود الكلمات.

ومن أمثلة الإدغام أو المماثلة المترتبة على حذف الحركة الإعرابية في قراءة أبي عمرو، أن حُذفت الحركة الإعرابية من (داود) فتحوّلت الدال التي كانت تحمل الحركة الإعرابية إلى جيم، بتأثير الجيم في (جالوت)، هكذا: "وقتل داودُ جالوت" ¹ ← dā/ wuğ/ ġā/ lūt وتحوّلت الضاد التي فقدت الحركة الإعرابية إلى شين ثم أدغمت فيها، في قوله تعالى: "لبعض شأنهم" ² ← li/ baʕš/ šā/ ni/ him وتحوّلت السين إلى شين نحو: "واشتعل الراس شيباً" ³ ثم أدغمت في الشين. والأمثلة على هذا فوق الحصر، بل هي ظاهرة عند بعض القراء. وقد حدث هذا في بعض أصوات الحلق، في بعض القراءات، في: "فمن زُحِرِحَ عن النار" ⁴ التي قلبت فيها الحاء عيناً وأدغمت في العين اللاحقة، هكذا: (زُحِرِعَن) zu.h/ziʕʕan .

وقد أسفر حذف الحركة الإعرابية في بعض القراءات، عن إدغام القاف في الكاف في قوله تعالى: "خالق كل شيء" ⁵ هكذا: lik/kul، ومنه إدغام الكاف في القاف في قوله تعالى: "ونقدس لك قال" ⁶ هكذا: laq/qāl، ومنه القراءة بإدغام الجيم في الشين في قوله تعالى: "أخرج شطأه" ⁷ raš/šaṭ ، وإدغام السين في الزاي، في قوله تعالى:

1 سورة البقرة، الآية 251.

2 سورة النور، الآية 62.

3 سورة مريم، الآية 4.

4 سورة آل عمران، الآية 185، وانظر ابن القاصح: سراج القاري 40.

5 سورة الرعد، الآية 16.

6 سورة البقرة، الآية 30.

7 سورة الفتح، الآية 29.

"وإذا النفوس زوجت"¹ هكذا: fūz/zuw. ومنه القراءة بإدغام الدال في التاء في قوله تعالى "في المساجد تلك"² هكذا: ġit/til وإدغام الدال في الذال في قوله تعالى: "القلائد ذلك"³ هكذا: id/dā، والدال في السين في قوله تعالى: "عدد سينين"⁴ هكذا: das/si، والدال في الشين في قوله تعالى: "وشهد شاهد"⁵ هكذا: hiš/šā، والدال في الصاد في قوله تعالى: "تفقد صواع الملك"⁶ هكذا: qiṣ/ṣu... إلى غير ذلك. وهو كثير ذكره ابن مجاهد⁷.

حملت اللهجات - وهي غير مكتوبة- السياقَ حملاً ثقیلاً بالاعتماد عليه وحده، وكأنما حملها على ذلك سياق الحال، بما قد يصحبه من حضور القائل والسامع، واستخدام الحركة والإشارة والوقوف على المناسبة، وفوق ذلك كله إحساس القائل بأن إنشاء الكلام، مع التحلل من الحركة الإعرابية، ذات النظام المحدد، سيكون أسهل، وهو ينتمي إلى نظام لهجي يفتقر إلى النظام الذي تقتضيه الحركة الإعرابية. بيد أنها سهولة قد تؤدي إلى اللبس في أداء المعاني، وقد يظهر هذا اللبس بوضوح لو أن اللهجة تصدّت إلى ما تنصدى له الفصحى في مجالات التعبير الدقيقة. وإن لم تؤدي إلى اللبس بمعنى حمل معنيين محتملين للجملة الواحدة، كما مرّ في تركيب جملة: حصن

1 سورة التكوير، الآية 7.

2 سورة البقرة، الآية 187.

3 سورة المائدة، الآية 97.

4 سورة المؤمنون، الآية 112.

5 سورة يوسف، الآية 26.

6 سورة يوسف، الآية 72.

7 انظر ابن مجاهد: السبعة في القراءات 113 وما بعدها بعنوان: "الإدغام واختلافهم فيه، ومكي بن أبي طالب في الكشف عن وجوه القراءات السبع 143/1، وانظر الداني في التيسير 23 وما بعدها، وانظر عبد الصبور شاهين: أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي 134 وما بعدها، والجندي: اللهجات العربية 299/1 وما بعدها.

لطيف، وحصنُ اللطيف، فإنها قد تؤدي إلى شيء من الغموض كما في إدغام الفاء والباء في قراءة أبي عمرو من العلاء لقوله تعالى: "تخسف بهم"¹ وقوله تعالى: "يغفر لكم"²، إذ تتحوّل الراء إلى لام، وتُدغم فيها كما لو كانت: "يغفل لكم".

تحاشي تشكّل المقطع الطويل المغلق في الكلام المتصل

وتَحَمَلُ السياق في الفصحى عبء الغموض في موقع آخر لا تظهر فيه الحركة الإعرابية في موقعها القياسي، فاصلاً بين كلمتين تنتهي الأولى منهما، في الأصل، بصائت طويل، وتبدأ الثانية بساكن، بحكم الوصل، كما في نحو: جرى الولد، ويجري الولد. وذلك بتقصير الألف في: جرى، ويجري، تجنباً لتشكّل مقطع طويل مغلق في الكلام المتصل، ولذا فإن بعض الناس يشتدّ حرصه هنا، على الألف أو الياء (الصائت الطويل في جرى، ويجري) فيحقق نطقها طويلة مع المحافظة على التخلص من المقطع المديد المغلق، ولا يتأتى له ذلك إلا بنطق "الولد" بهمزة قطع. وفي هذا تفسير لفلسفة الخطأ الدارج بتحقيق الهزمة فيما رمز إليه في النظام الكتابي التقليدي بهمزة وصل.

والعربية تُصَرِّح الحركة الطويلة إذا تلاها صامت ساكن كما في: رعاتُ (رعا+ت) التي تصبح: رَعَتْ، أمّا في: رعاهم، فقاعدة التقصير لا تنطبق، لأن الألف تُلَيِّت بصامت متحرك (الهاء من هم). أمّا السكون في: رعاكُ فلا يترتب عليه تقصير الألف، لأن السكون عارض، لا يكون إلا في الوقف، إذ هي في الأصل: رعاكُ.

وعلى هذا فإنه يستوي نطقاً أن يقال: اكتبِ الدرس، واكتبي الدرس. ويبقى الأمر للسياق وحده، في هذا المثال ونحوه للتمييز بين المذكر والمؤنث.

1 سورة سبأ، الآية 9.

2 سورة الأحقاف، الآية 31، وانظر ابن مجاهد: السبعة في القراءات 121.

ويجري قانون التقصير على نحو: "تجري الشمس"

taġ / rīš / šams → taġ / riš / šams

إذ يُقَصَّر الصائت الطويل في تجري، حتى لا يتشكّل مقطع مديد مغلق، وخاصة أن الصوت الذي يلي الياء هو الصامت المشدد من أثر إدغام اللام فيه، وحق المقطع هنا لو سُحِح بالمد أن يمدّ أكثر من مدّ المقطع السابق في نحو جرى الولد أو تجري البنت، أو يدعو الولد.

ġa / rāl / wa / lad → ġa / ral / wa / lad

taġ / rīl / bint → taġ / ril / bint

yad / °ul / wa / lad → yad / °ul / wa / lad

ولمّا كان المقطع الطويل المغلق والمقطع المديد المغلق يشكّلان عقبة نطقية، عند وصل الكلام¹، فهو مكروه في الأول وأشدّ كرهاً في الثاني، وكان المخرج منهما أن يحوّل إلى مقطع قصير مغلق. ويتحمّل السياق في مثل هاتين الحالتين عبء إمالة الغموض. وهكذا يمكن أن يحدث هذا حين يكون الصوت الصائت آخر كلمة، والصوت الذي يليه (في الكلمة التالية) صوتاً ساكناً، كأن يقال: يجري ابنه، يخبو الضوّء، يرجو الولد، يشفى المريض.

yaġ / rīb / nuh → yaġ / rib / nuh

yah / būd / d.aw' → yah / bud / d.aw'

yaš / fāl / ma / rīd. → yaš / fal / ma / rīd.

ولا يقال هنا إن المقطع المديد (أي الذي يُمدّ ست حركات) قد جاء في نحو: الصاخّة والطامة، والضالين، في القرآن الكريم. لا يقال ذلك، لأن هذا خاصّ بأحكام التجويد، وفي داخل الكلمة، وليس عاماً جائزاً في النطق العادي. فالمقطع الطويل

1 انظر كمال بشر: دراسات في علم اللغة، القسم الثاني، 110.

المغلق، أي الذي مقداره حركتان جائز في النطق العادي. وأمّا المديد الذي مقداره أربع حركات إلى ست حركات فهو من خصوصيات التجويد. فإن قال قائل: هذا شابّ كريم، فإنّ شاب، فيها مقطع طويل مغلق، وليس مديدًا مغلقًا، لأنه كلام عادي، وليس مجوّدًا. ولم يكن ثمة مفر من المقطع الطويل المغلق في وسط الكلمة، في نحو اسم الفاعل من الثلاثي المضعّف نحو: رادّون، ومارّون، وضالّون (وقد تجنب ذلك بعض اللهجات إذ حافظت على الأصل الذي يحتوي على كسرة بين الصامتين المتّيين فلم تدغم، إذ قيل: رادد، وضالل وهذا أوضح. قال سيبويه: "ودعاهم سكون الآخر في المتّيين أن بين أهل الحجاز في الجزم، فقالوا: أردد ولا تردد، وهي اللغة العربية القديمة الجيدة، ولكن بني تميم أدغموا"¹. وقد قصر المقطع في: احمارّ ← احمّر، وقسم المقطع في بعض اللهجات في نحو: احمارّ ← احمارّ، ومن ذلك: الضالّين ← الضالّين. وهي قراءة أيوب السخيتاني².

ولا يُخلط هنا بين طول الياء في نحو يجري أحمد، ووجود الهمزة في: أحمد، فيظن أنّ هذا من باب المدّ الجائز المنفصل في أحكام التجويد في القرآن الكريم، فالمدّ الجائز المنفصل يُحقّق غاية تجويدية للصوت، وهو مدّ مديد، (بمقدار 4-5 حركات في رواية حفص، و2-3-4-5-6 لجميع القراء على التفصيل، و2-4-6 على الإجمال) وليس طويلًا كما هي الحال في النطق العادي لنحو: يجري أحمد / yağ/ rī/ 'a.h/ mad. والياء في يجري أحمد، تُمدّ في النطق العادي بمقدار حركتين أي بالمقدار الذي تمدّ فيه الياء في نحو: يجري زيد / yağ/ rī/ zayd. وعلى هذا فإنّ مدّ يدعو أحمد، ويسعى أحمد، كمدّ: يدعو زيد ويسعى عمرو. والمدّ العادي هنا مسوّغ بعدم وجود صوت ساكن بعد صوت المدّ، وعلى هذا فإنه لا يتشكّل مقطع طويل مغلق بين الكلمتين الموصولتين. وينبغي تأكيد هنا مبدأ الوصل، إذ تشكّل المقطع الطويل المغلق

1 سيبويه: الكتاب، 4/ 473، وانظر الجندي: اللهجات العربية 1/ 295.

2 انظر أبا حيان الأندلسي: تفسير البحر الحيط 1/ 30، وانظر السمين: الحلبي 1/ 74.

جائز عند الوقف، كما هي الحال في نحو: قال، ومال وريح وروح.. حين الوقوف عليها. وأما المقطع المديد المغلق، فكما مرّ، لا يُحتاج إليه إلا لغايات تحسين الصوت.

مواطن ملبسة نطقاً وكتابةً.

وهنا قد يتساءل: كيف نميّز - نطقاً - : الفعل: كال kal من كال يكيل وكال التي هي اسم الفاعل من كلّ يكل، حين الوقف عليهما؟ ففي هذه الأمثلة ونحوها تنتهي أهمية الحركة الإعرابية بسبب الوقف، وتتجلى أهمية السياق، ولا تبدو أهمية التشديد، بسبب التسكين. فصوت اللام من كلّ يكلّ كالّ، نكتبه مشدداً، ولكن النطق عند الوقف لا يظهر التشديد، فالشدة تعبر صوتياً عن صوتين متماثلين: أحدهما ساكن والآخر متحرك. والمشدّد" يمتد على مقطعين، في الكلمة العربية، فالجزء الأول منه يقع في نهاية مقطع، والجزء الثاني يقع في بداية المقطع الذي يليه أي أنه يؤدي، من حيث وظيفة في التركيب المقطعي للكلمة، وظيفة صحيحين متواليين¹. أما في الوقف فإن المتكلم لا ينطق كالّ المشدّد إلا ساكنة، وإن كتبت مشددة، ويبدو أن الفرق الصوتي بين كال بالتسكين والوقف، من كال يكيل، وكالّ (بالوقف) من كلّ يكلّ، فرق في درجة النبر وطول مدة نطق اللام، فالنبر في الحالة الأولى مخفّف على اللام، وهو مثقل على اللام في الحالة الثانية. وقُل مثل ذلك في: سارَ (فعلاً) وسارَ (اسماً) وهكذا في كل ماض أجوف واسم فاعل من ثلاثي مضعف، إذا وقّف عليهما، ولم يوضعا في سياق.

وسيكون المثال أكثر تعقيداً في نحو:

زيد وكَلَّ أمره إلى الله وغيره لم يكلّ.

زيد كالّ صديقه صاعاً وصديقه لم يكلّ.

زيد كلّ من المماثلة، وغيره لم يكلّ.

1 داود عبده: دراسات في علم أصوات العربية، 28.

فالنطقان في الأولى والثانية متساويان تماماً، والأمر متروك للسباق وحده في التمييز بينهما.

وشكل النطق في الثالثة متميز بموقع النبر وطول مدة نطق الصوت الأخير، ولا يعتد بالشدة، نطقاً، عند الوقف. فهي تكتب في مثل هذه الحالة، ولكنها تفقد قيمتها النطقية. إذ نطقها يعني توالي مثلين، أحدهما ساكن والآخر متحرك، ولا يكون لها ذلك إلا في الوصل دون الوقف. أمّا في الوصل فإن البنية المقطعية تظهر هذا الصوت المشدد على شكل صوتين متماثلين، يدخل كل منهما في بناء مقطع مستقل. وعلى هذا فلو وصلت: لم يكلّ، بواو الجماعة لقلت: لم يكلّوا lam/ya/kil/tū، وأمّا من غير الوصل، أي وقفاً، فهي لام واحدة ممتدة.

وطول مدة نطق الصوت في نحو: "مستمر" mus/ta/mir، من قوله تعالى: "في يوم نحس مستمر"¹، ولم يكلّ، تستوي مع طول مدة نطقه في نحو: هذا جعفر (بتشديد الراء)، وقام الرجل (بتشديد اللام)، حال الوقف عليه لدى من يتقل نطق الصامت الأخير وقفاً². فطول مدة النطق ليس مشروطاً بالتشديد، وللمرء أن يختبر هذا بما يحدث في بعض العاميات حين تنطق فعل الأمر (كلّ) المتصل بالضمير (ها) (كلّها) وكلمة التوكيد المعنوي (كلّها)، بمعنى جميعها، إذ اللام ساكنة في الحالين، بيد أنها في الثانية أطول مدة في النطق. بيد أن هذه الإطالة مرهونة بالوقف، لغاية إظهار الصوت الذي هو عرضة للحذف، أو الخفاء لتطرفه، ومن ثمّ، فإن هذا الصوت لا يطول الوقف عليه في الوصل، وعلى هذا فإنه مقطوعاً لا يدخل في تشكيل مقطعين. أمّا في نحو: مستمرّ، فإن الصوت الأخير يدخل في تكوين مقطعين عند الوصل، وإطالة الوقف عليه إشعار بأنه وصلاً، صوتان.

1 سورة القمر، الآية 2.

2 انظر ابن جني: المنصف 10/1.

وأشبه هذا المثال الملبس قليلة في اللغة، فأنت تميّز بالحركات الصرفية صيغة من أخرى. كأن تقول: وَعَدَّ يَعدُّ (يكسر العين)، ومن مضارع عاد في الجزم: لم يَعدَّ (بالضم). ويقال عَدَّ يَعدُّ (بالتشديد المتميز بالنبر حين الوقف) وقس على ذلك أفعالاً نحو: وجد وجدَّ، ووردَ ووردَّ، ووقد وقاد وقَدَّ... وهكذا.

من ميل العربية إلى تقصير المقطع

ولعله يجدر أن يُنبّه على أن العربية تميل إلى تقصير المقطع بين الكلمتين حتى لو لم يتشكّل مقطع طويل مغلّق، ففي قولنا: يجري الامتحان ببسر، فإن الياء الثانية من يجري، جزء من مقطع قصير مفتوح، والمنتظر أن يكون المقطع طويلاً مفتوحاً، إلا أنه قُصِّرَ تيسيراً وإيجازاً.

yağ/ rī/ lim/ ti / h.ā / nu / bi / yusr → yağ / ri / lim / ti / h.ā / nu / bi / yusr

ولغاية التخلص من المقطع الطويل المغلق، في نحو: تجري الناس، قُصِّرَت الياء في تجري، وعلى هذا يكون قد اعترى (تجري) بسبب التخلص من المقطع الطويل المغلق في وسط الكلام، ما يعتربها وأمثالها من الأفعال الناقصة بسبب الجزم. وعلى هذا يكون الظاهر اللفظي قد ساوى بين: تجري الناس (الفعل مرفوع)، ولم تجر الناس (الفعل مجزوم).

tağ / rin / nās = lam / tağ / rin / nās

إذ القيمة الصوتية للكسرة الطويلة في تجري هي هي، غير أن التفسير اللغوي من حيث العمل النحوي يختلف في: لم تجر، عنه في: تجرى الناس. إذ هو هنا لغاية صوتية لا علاقة لها بالجزم، وهي تسهيل النطق، والابتعاد عن تشكّل مقطع طويل مغلق، وتحاشي قطع همزة الناس.

وقد تضيق العربية ذرعاً بالمقطع الطويل المغلق في بعض المواقع، حتى في الوقف، كأن يوقف على اسم المفعول إذا بني من الثلاثي الناقص، كما في: مدعو، إذ

أصلها مدعوو mad/°ūw وقفاً. ومع أن قانون العربية يقبل بالمقطع الطويل المغلق في الوقف، كما في رحيم ra/hīm، وغفور ġa/fūr غير أنه في مدعو mad/°ūw لم يقبل بهذا المقطع الطويل. والعلة تكمن هنا في شبه الحركة w في °ūw ولذا قُصِرَ المقطع، فأصبح صوتياً mad/°uw ولا اعتبار صوتياً، للشدة التي نكتبها وفق نظام الكتابة التقليدية، هكذا: مدعو. فالمقطع الموقوف عليه °ūw أصبح °uw. وهذا يعني أن العربية تخلّصت من المقطع الطويل المغلق بتقصيره حتى في الوقف، ما دام هذا المقطع قد أقفل في بنائه بشبه الحركة،

بيد أن الشدة تعود للظهور عند الوصل والنطق بالحركة الإعرابية mad/°uw/wun. وهذا ما يحدث في نحو: مرمي.

وشبه الحركة مكروه في بعض مقاطع العربية كما في نحو: يسعيان yas/°a/yān ويرجوان yar/ġu/wān ومع ذلك فقد تخلّصت منه في الجمع كما في يرجوون yar/ġu/wūn ← yar/ġūn، فهي تحاول أن تتخلص من أشباه الحركات في كثير من المواقع، ولذا انحازت عن وزن تفعيل فلم تبين عليه الفعل ربّي، فلم يقل tar/bīy وإنما خصّته بوزن خاص، هو تفعلة ليصبح: تربية tar/bi/yah ولو سير على القياس لبني على تفعيل كما هي الحال في: كبر تكبيراً، وعظم تعظيماً. وأمّا نحو: جرب، فالأصل في بناء مصدره أن يكون على: تجريب، لأنه صحيح، وأمّا بناؤه على تجربة، فهو من باب التوهم، قد قيس على المعتل في نحو سلّى، وربّي.

خاتمة

وبعد، فأحسب أن هذه الصفحات قد وضّحت وظيفة الفصل الذي يسفر عن وضوح شخصية الكلمة في سياقها من الجملة، وعلى ذلك فلا وجه لدعوى من يكررون الحديث عن إلغاء النظام الإعرابي، ويدعون إلى تسكين الكلام، مرتدين

مقولتهم: "سَكَنَ تَسَلَّمَ"، وهم ينطلقون من زعم أن الحركة الإعرابية ليست مهمة، ما دامت لا تقدّم ولا تؤخّر في نقل المعنى.

وأحسب أن هذه الصفحات قد أكّدت أهمية الحركة الإعرابية بنظامها المعروف، في مجال:

- المعنى، إذ تساعد على مرونة التعبير تقديماً وتأخيراً، مع الحفاظ على مَيِّز الفاعل من المفعول، وما شاكل ذلك مما هو مقرر معروف في النظام الإعرابي.

- وصل الكلام، إذ يكون التسكين في آخر الكلمة عائناً دون سلاسة القول.

- فصل الكلمة عن أختها، بما يميّز شخصيتها، ويحول دون اختلاط الكلام، وهذه - المسألة الأخيرة - هي موضع عناية هذه الصفحات.

وقد قدمت هذه الدراسة أمثلة مستفيضة من القديم والحديث، تبين مدى أهمية الحركات في أواخر الكلم في حفظ شخصية الكلمة داخل الجملة، والتخفيف عن السياق في الفصحى في أداء المعاني وتحقيق غرض التواصل اللغوي، والابتعاد عن اللبس الذي يستشعره المرء في اللهجات التي تتكئ أكثر ما تتكئ على السياق.

وأوضحت هذه الدراسة أنه قد يترتب على زوال الحركة الإعرابية، أمور منها:

- احتمال أن تتغيّر خصائص الصوت الأخير من الكلمة الذي يسبق الحركة، بما يتناسب وخصائص الصوت الذي يليه، فبعض الأصوات أكثر من بعض في مدى التأثير بوسطه النطقي. ويكون التأثير كبيراً بين الأصوات التي تلتقي على مواصفات صوتية أكثر.

- كثرة إدغام الصوت الأخير الذي يسبق الحركة، بالصوت الأول من الكلمة التالية لها، كما في: "وقتل داود جالوت" ← "وقتل داوَجَالوت".

- قد يطرأ بعد زوال الحركة الإعرابية أن يتحول الصوت الأخير من الكلمة إلى صوت ذي خصائص مختلفة عن الصوت الأصلي بتأثير من الصوت الأول من الكلمة التالية لها كما في نهج توفيق ← نهش توفيق (بالشين المجهورة)
- قد يحدث لبس في المعنى، يجعل السياق وحده القادر على الميَّز بين مقصودين، فلو قيل في برد صالح ← برصالح، فإن المرء لا يدري هل المقصود: برد صالح، أي أصابه البرد، أو برص صالح، أي إصابة صالح بداء البرص.
- التغيُّر المترتب على زوال الحركة الإعرابية يترتب عليه تغيُّر في عدد المقاطع ونوعها.
- قد يترتب على إلغاء الحركة الإعرابية التقاء الساكنين في وسط الكلام، وتشكل مقطع قصير مغلق مزدوج الإغلاق، في وسط الكلام
(لبعض شأنهم ← لبعشانهم li/baʕš/šā/ni/him).
- تبدو اللغة كما لو كان لها عقل باطني، يرفض تماماً، أشكالاً من النطق الملبس بالباساً، لا ينفع السياق في إصلاحه، على صعيد الفصحى واللهجات. فأخذ تفاحاً، لا يمكن أن يقبلها العقل اللغوي على هذا النحو: أخذفاحاً، بإدغام التاء من: تفاح، في الذال من: أخذ. ويقبل العقل اللغوي بإدغام الذال من: أخذ في التاء من: تفاح، وهو شكل مقبول يزول غموضه بالاعتماد على السياق. وأمّا النموذج الأمثل الذي تقيم اللغة الفصحى عليه قاعدتها فينهض به الاعتماد على إظهار الحركة الإعرابية، كما في: أخذ تفاحاً، إذ تقوم الحركة الإعرابية بوظيفتها التي تفصل فيها بين الكلمتين الموصولتين داخل الجملة.
- تحاشي تشكُّل المقطع الطويل المغلق بين كلمتين، تنتهي الأولى منهما، في الأصل، بصائت طويل، وتبدأ الثانية، بحكم الوصل، بساكن، هكذا: جرى الولد
ğa/ral/wa/lad ← ğa/rāl/wa/lad

- ميل العربية إلى تقصير المقطع، حتى لو لم يتشكّل مقطع طويل مغلق . انظر:
يُجرى الامتحان yağ/ri/lim/ti/h.ān ← yağ/ri/lim/ti/h.ān
- قد يكون النبر حاسماً في الميز بين بعض المواطن التي فقدت الحركة الإعرابية بسبب الوقف. انظر مثلاً: لم يكل من كلّ، ولم يكل lam/ya/kil من كال، ولم يكل lam/ya/kil من وكل .

هذه بعض أظهر النتائج التي تضمنتها هذه الدراسة، راجياً أن تكون هذه الصفحات مقنعة في بيان أهمية الحركة الإعرابية، وخاصة في هذا الزمن الذي كثرت فيه الحملات شرسة للتشكيك في العربية الفصحى، وفي الحركة الإعرابية بالذات، بوصفها أبرز ما يميّز النظام الإعرابي.

المصادر والمراجع

- إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، طبعة 2، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1958.
- إبراهيم مصطفى: إحياء النحو، القاهرة 1959
- أحمد محمد القضاة، وأحمد شكري، ومحمد خالد منصور: مقدمات في علم القراءات، عمان 2001.
- ابن الباذش: الإفتاح في القراءات السبع، تحقيق عبد المجيد قطامش جامعة أم القرى 1403.
- بروكلمان، كارل: فقه اللغات السامية، ترجمة رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض 1977.
- الجندي، أحمد علم الدين: اللهجات العربية في التراث، القسم الأول، طرابلس ليبيا 1983.
- ابن جني: سر صناعة الإعراب، تحقيق أحمد فريد أحمد، المكتبة التوفيقية، القاهرة .
- ابن جني: المنصف (شرح كتاب التصريف للمازني) تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، مصر 1373هـ - 1954 م.
- ابن جني: المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات، تحقيق علي النجدي ناصف وعبد الفتاح شلبي، القاهرة 1389هـ، 1969م .
- أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، دار الفكر 1403هـ، 1983م.
- الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد: التيسير في القراءات السبع، تحقيق أوتوبرتزل، مكتبة المثنى، بغداد .
- داود عبده: أبحاث في اللغة العربية، مكتبة لبنان 1973
- داود عبده: دراسات في علم أصوات العربية مؤسسة الصباح، الكويت
- رمضان عبد التواب: التطور اللغوي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، دار الرفاعي بالرياض.

- الزجاجي:الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك،مكتبة دار العروبة القاهرة 1959.
- الزركشي، بدر الدين: البرهان في علوم القرآن،تحقيق مصطفى عبد القادر عطل، دار الكتب العلمية، بيروت 2001
- السمين الحلبي: الدر المصون، تحقيق أحمد الخراط، دار القلم، دمشق1414هـ -1993م
- سيوييه: الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت.
- عبد الصبور شاهين: أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، مكتبة الخانجي بالقاهرة 1408هـ - 1987 م
- عبد الصبور شاهين: المنهج الصوتي للبنية العربية، مؤسسة الرسالة، بيروت 1980
- ابن القاصح، علي بن عثمان: سراج القاري، دار الفكر1981.
- القيسي، مكّي ابن أبي طالب: الكشف عن وجوه القراءات السبع، تحقيق محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة،بيروت 1401هـ - 1981م.
- كمال بشر:دراسات في علم اللغة، القسم الثاني،دار المعارف بمصر 1971
- ابن مجاهد: السبعة في القراءات، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، الطبعة 2.
- ابن يعيش: شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت.

المراجع الأجنبية

- .Gesenius:Hebräisches und Aramäisches Handwörterbuch, Germany 1962
- .Th.lewandowski: Linguistisches Wörterbuch , Heidelberg 1979

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2009/12/22.